نجوى السيد..

مقامات الحزن الشفيف

أصبحت ظاهرة انتشار شعر العامية بابًا مفتوحًا على مصراعيه؛ لكلّ من يكتب خواطر، ويظن أنه شاعر. وقلة تكتب الشعر العامى عن موهبة، بعدما تسلحت بقراءة تراث الشعر العامى الذى بدأ – في تصوري– مع شذرات متناثرة من كتب التراث وأدب الرحلات، إلى ظهور ديوان "هز القحوف في شرح قصيد أبي شادوف" للشيخ يوسف الشربينى"، وما كتبه شاعر الثورة العرابية عبد الله النديم، والشيخ يونس القاضى، وبديع خيرى، وصولًا لبيرم التونسى وفؤاد حداد وصلاح جاهين وعبد الرحمن الأبنودى وسيد حجاب وفؤاد قاعود وزكي عمر وزين العابدين فؤاد وإبراهيم رضوان ومسعود شومان ويسري حسان وغيرهم.

وأذكر مقولة الأبنودى: "نحن اخترنا السباحة فى العامية، لنكون الواسطة بين الفكر وأهالينا البسطاء"، ولا أتصور أن شاعر العامية ينفصل عن متلقيه، هؤلاء البسطاء المتذوقين للشعر، فنجاح شاعر العامية؛ حينما يلقى شعره على جمهوره سواء من المثقفين أو البسطاء، وتتحقق استجابتهم لشعره.

ذلك ما حدث عندما سمعت نجوى السيد تشدو بقصائدها ضمن فعاليات مؤتمر أدباء مصر في الأقاليم بالإسماعيلية، أوائل

التسعينيات، وقد توطدت معرفتي بنجوى السيد بعد نشر ديوانها "أناشيد البراءة" ضمن سلسلة كتاب قطر الندى، تجلت سمات حب الإبداع، والدقة، والمتابعة، وكنت أشفق عليها مشاق السفر من الإسكندرية إلى القاهرة، لتصحيح الديوان قبل طباعته، ومشاهدة رسوم الفنان الكبير على دسوقى المصاحبة لقصائد الديوان. لم يكن فى حياتنا آنذاك – واتس آب أو فيس بوك أو ماسينجر– فكانت نجوى تشترى عشرات الأعداد، وتوزعها هدايا للأطفال فى لفتة أمومية صادقة، ومن يومها صارت صديقتى.

صدر للراحلة نجوى السيد الجزء الأول من أعمالها الشعرية الكاملة فى الهيئة المصرية العامة للكتاب، وهناك مبادرة لصدور إبداعاتها في القصة، والنقد، والمسرحية، والمتابعات الإعلامية، وشعر الأطفال.

تمثل نجوى السيد صورة المثقف العضوى، فعلى الرغم من ظروفها الصحية، فإنها لم تنعزل عن الحياة الاجتماعية ولا محيطها الثقافى، كانت عضوًا مؤسسًا في جمعية تنمية المواهب بالإسكندرية، وعضوًا فى العديد من هيئات المجتمع المدني، مثل جمعية المستقبل لسيدات برج العرب، وجمعية تنمية المجتمع المحلى ببرج العرب، وجمعية الإغاثة ومقاومة الكوارث بالإسكندرية، وجمعية مقاومة الإيدز التابعة لمنظمة اليونسيف.

قصائد ديوان "أناشيد البراءة" تدور حول الطفولة وأحلامها وآمالها، جمعت الشاعرة بين آمال الطفولة وأحلام الوطن، والقصائد أغنيات،

تقترب من أغنيات أمهاتنا وجداتنا، لكن نجوى تستعير صوت الطفولة، المعبر عن البساطة والعذوبة وعمق المعانى، إلى جانب استلهام التراث، والإفادة من الحكاية؛ كتقنية نلتقيها فى أكثر من كتاب للأطفال. وإذا كانت نجوى السيد، قد نشرت تلك الإبداعات فى طبعات خاصة، فإنني أتمنى أن يجمع هذا التراث، نظرًا لحاجة أطفالنا إلى تلك الكتابة الواعية باحتياجات الطفل الإدراكية والنفسية والمعرفية. وقد كانت البساطة المتسربلة بعمق المعانى إحدى أهم سمات قصيدة نجوى السيد، وتقول:

أنا باعزف لحن لمصر
وباغنى عليه وباقول
دايما أقواس النصر
فى طريقك عرض وطول أولادك نبض فى قلبك بينور وسط الدار
أنا نفسى أكون موسيقار.

هى تربط بين أحلام الطفل صانع مستقبل الوطن، لتطابق أحلام الطفل مع أحلام الوطن.

وفي ذكرى رحيلها، صدر عن نجوى السيد كتاب بعنوان "نجوى السيد رحلة فى سماء الأدب والفن" عن سلسلة الكتاب التذكارى لأتيلييه الإسكندرية، من إعداد زوجها الشاعر فوزى خضر، يضم ما كتب عن نجوى السيد من دراسات نقدية، بالإضافة للعديد من الشهادات لأدباء وشعراء ونقاد.

تنبأ الشاعر الكبير محسن الخياط، بما ستبلغه نجوى السيد من مكانة شعرية، فهي عندما تكتب؛ إنما تكتب عن هوية المرأة عبر مدلولات رمزية حيث تحتل المرأة مساحة لا يستهان بها فى أغلب دواوينها، وهى تستخدم الصيغة الحلمية، سواء كانت تراثية أو تاريخية أو واقعية، ودائما ما تنحو القصيدة نحو اكتمال الوعى الذاتى والوعى الغيرى، ومن ثم يتم تفكيك الحكاية وإعادة بنائها، عبر رؤيا قد تكون صادمة لما هو معتاد، فلا نهايات مفرحة كما فى رحلة زواج قطر الندى الشهيرة، التى حفظها لنا التراث: الحنة يا حنة يا قطر الندى، ونلحظ حضور الذات الشاعرة ونفسها فى إعادة التصور، واستكناه مكنونات الشخصيات التراثية.

تحضر الذات الشاعرة فى حضور سافر معبرًا عن مأساة ابنها مع المرض، فتعيدها لنا خطابًا شعريًا يقطر لوعة الأم على تألم ابنها، راجية من الله شفاءه.

أهرب/ وما أطل فى عينيك
من يوم ما ابنى صابه سهم من القدر
وأنا بانقتل
وخايفه أبوح

وفى قصيدة "أمر الطبيب" تنشد:

محروم ضنايا م البكا بأمر الطبيب
وازاى أسامح نفسى.. لو دمعى انفرط؟
ادعى لى.. يسمح لى طبيبى بالبكا

بدى أفضفض حتى أقدر أرتوى

خوفنى ليه يا امه الطبيب؟

تظل القصيدة حبيسة الألم؛ الذى يتوزع بين الابن وأمه، كل منهما يدارى ألمه، قلب الأم يدعى، والعين يعصاها الدمع، والقلب ينزف وجعًا، وتنتهى القصيدة بابتهال للرب بشفاء الابن.

لم تكن الأمومة عند نجوى السيد غريزة طبيعية، كما لدى كل النساء، لقد تحولت إلى حافزها الأول فى تفجر ينابيع الشعر لديها، فعبر تعدد رؤى الوظيفة الطبيعية، تتحول إلى وظيفة ثقافية إنسانية تسع مظاهر الكون كله، فيلين ما هو صخرى، ويؤنسن عوالم الطبيعة فتتفجر فيها العاطفة والحنان.

تعيد الذات إنتاج حضورها الشعرى عبر اللعب بدوال، قادرة ليس على تفسير العالم، بل على تشكيل معانيه وفك مكنوناته، وتظل الذات قلقة، لكنها لا تدخلنا فى منطقة الظلال والعتمة المفرطة، تتشكل الصور الجمالية فى يسهر وبساطة، فتعين المتلقى على اقتناص الدوال بسهولة ويسر، وهذه إحدى سمات شعر العامية. إن اليومى والمعتاد يدخل فى سياقات شعرية تجاوزت السطحية لكنها – أبدًا – لا تقع فى براثن المباشرة، فتقدم نجوى شعرية تستدفئ بالحياتى، أو تأتنس به.

فى ديوانها السادس "حبات الحروف" استخدام ذكى للصورة الشعرية غير المركبة التى تجعلنا نقف أمام عتبات المربعات الشعرية والموال، فهذا اللون الشعرى يعطى الشاعر فرصة لاستعراض الحكم،

بحيث تقترب من حياة المتلقى وذائقته، الحكمة أو المثل هى صوت الشعب وتجربته على مر العصور:

منين أفوت؟ / لا باب.. ولا شباك

وحتى شق جدار فى كل وقت حصار

يستنى مسار الصوت

منين أفوت؟!

هذا التصدير الشعرى يلزم الذات الشاعرة أن تحدق فى المعاناة، لا استسلام، بل تتوالى محاولات الخروج، والتصدى للعقبات، فلا تجد إلا الناى، أو ورق الشجر، أو معنى الأمومة.

نجوى مغرمة بتضفير المثل الشعبى، كما في داخل نسيج قصيدتها "الكرم":

لو خدت م التل

راح يختل

وأنا اللى مرضان بالكرم

إيه راح يكون الحل؟

المقابلة تلعب فى هذا اللون الشعرى دورًا لا يستهان به لتلبية احتياج ذائقة المتلقى، وتثير فيه المواقف والشجون، وتعيد مواقف مشابهة لما تثيره القصيدة. إن للسؤال داخل الجملة فى شعر نجوى جمالياته، إنه تعبير عن موقف الشاعرة، ودعوة تستحث المتلقى على المشاركة في لحظات القلق والدهشة والارتباك. وهكذا تلخص نجوى

السيد المعاناة الإنسانية، وعجزها عن فك حصارها الدائم، وكأنها رمز أسطورى للمعاناة.

بهذه الأبيات تعبر نجوى عن معاناتها الحقيقية مع المرض، لقد داوت الروح بالنغم والإيقاع والسباحة فى جماليات اللغة. وإذا كان المنجز الشعرى هو ما تضمنه الجزء الأول من أعمالها الكاملة، فإننا نأمل أن يرى النور باقى منجزها من مسرحيات وسرد قصصى ودواوين شعرية للأطفال.